في عولمة النظرية النقدية
محطة موسكو: الشكلية الروسية

د. عبد النبي اصطيف

وجـدت أفكار فردينـان دوسوسـير وأنظاره الثورية في إبانها أرضاً خصبة في سـنوات الحرب العالمية الأولى، ولم تلبـث أن أثمرت حركة أدبية ونقدية ولغوية تركت بصماتها واضحة على القرن الماضي، من خلال حضورها في مختلف الاتجاهات والمدارس والحركات النقدية في القرن العشرين، من مثل البنيوية التشيكية، والبنيوية الفرنسية، وما بعد البنيوية وغيرها، والتي أقر معظم ناشطيها بدينهـم الكبير لهـذه الحركة، وتحدثـوا مطوّلاً عن آثارهـا في تفكيرهم النقدي. إنها الشـكلية الروسـية Russian Formalism التي سعت منذ البداية أن تُدخِل الدراسـة والبحـث الأدبيين في دائرة المعرفة المنظّمة التي ترتقي بها إلى مصاف سـائر العلوم والمعارف الأخرى، وتكتسـب بذلك احترام المؤسسات الجامعية والبحثية وتقديرها، وقد كانت من قبل قائمـة على الانطباعية والذوق الفردي، أو تستند إلى علوم ومعارف أخرى تستمدّ منها مشروعيتها وموضوعيتها المزعومة. وما كان لها أن تحقق ذلك دون أن تستند إلى قاعدة مكينة من الدرس اللغوي الحديث الذي افتتحه فردينان دوسوسـير بكتابه "مساق في اللغويات العامة"، ويسّر لها بذلك أساساً راسـخاً تستطيع أن تبني عليه دراسـتها للأدب، انطلاقاً من دراستها للغته -أداته الفنية التي تجعل منه أدباً مقابل النصوص الأخرى التي ينتجها الإنسان في حياته اليومية.

وجـاءت انطلاقة هـذه الحركة خـلال الحرب العالمية الأولى، وقبل ثورة أكتوبر عام 1917، عندما شـكلت مجموعة من طلاب جامعة موسكو ما بات يعرف في تاريخ النقد الحديث بـ "حلقة موسـكو اللغوية" التي هاجمت مبادئ النحو المحدثة للّغوي الروسـي فورتو ناتوف، وسـعت إلى دراسة وجوه الاختلاف بين اللغة الشعرية ولغة الحياة اليومية، مستعينة على ذلك باللغويات الحديثة. وكان ذلك عام 1915، وفي العـام التالي تنادى مجموعة من الطلاب الشـباب، الذين كانوا يثابرون على حضور سـيمنار البروفيسـور فينغروف Venegrov عن الشـاعر الروسي العظيم ألكسـندر بوشكين في جامعة بطرسـبرغ، لدراسة اللغة الشعرية والإيقاع والقافية والتأليف الشـعري، وشـكلوا ما عرف بـ "أوبوياز: جمعية لدراسـة اللغة العشـرية" عام 1916. ومـا لبث أعضاء "حلقة موسـكو اللغوية" أن انضموا إليها لتشـكل المجموعتان العلميتان ما عُرِف لاحقاً في تاريخ البحث الأدبي في روسـيا والاتحاد السـوفييتي بـ "الشـكليين الروس" Russian Formalists، وهو نعت أريد به النيل من هذه المجموعة الجـادة الواعدة التي كان لأفكارها المستلهمة أساسـاً من اللسانيات الحديثة تأثير حاسم في تطور الدراسات البنيوية وما بعدها من دراسات سـيميائية، وأُطلِق من جانب مناهضيها من مثقفي النظـام الجديد ونقـاده وكتابه ممن ضجّـوا، بتحفيز من سـتالين ومفوضـه الثقافي جدانـوف، إلى تبني الواقعية الاشـتراكية مذهباً وحيداً موجهـاً لعملية الإنتاج الأدبـي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

وقد ضمت مجموعة الشـكليين الروسـي كلاً من فيكتور شكلوفسكي، وجاكوبنسكي، وأوسيب بريك، وبوريس آيخنباوم، ورومان جاكبسون، ويوري تينيانوف، وتوماشفسكي، فضلاً عن عضوين كان حضورهما عارضاً فيها هما جيرمونسكي، الباحث المقارن المعروف وكبير منظري المدرسة السلافية في الدرس المقارن لـلأدب، وفينوغرادوف. وعلى الرغم من حماسة المجموعة لعملها والضجة التي رافقت نشـاطاتها وبياناتها فقد مرت سـنواتها الأولى بسـلام، ولكنها أثارت من جهة أخرى ردود فعـل تفاوتت في حدتها شـارك فيها كبار نقاد النظام في العشـرينيات من القرن العشـرين من أمثال لونا تشارسـلي، أول كوميسـار للتربية في الاتحاد السوفييتي، وليون تروتسكي، وبوخارين، وساكولين، وكوغان، وبيرفيرزيف، وغيرهم، وأدت في النهاية إلى إسكات أعضائها وتوقف نشاطاتهم التي أُدينت على نحو واسـع، ومن ثَمَّ إلى تفرقهم، أو إلـى انصرافهم إلى ميادين يرضى عنها النظام السـوفييتي، ولا يراها مصدر خطـر على التفكير الستاليني-اللينيني-الماركسي الذي كان يهيمن على مختلف وجوه الحياة في الاتحاد السوفييتي.

تعد الشـكلية الروسـية أول حركة نقدية وظّفت الأنظـار والأفكار والمناهج اللسـانية في دراسـة الأدب ونقـده. وإذ ناهضـت المدرسـة الرمزيـة السـائدة في حينها في المشهد الأدبي الروسي، وساندت المدرسـة المستقبلية الناهضة إذ ذاك، فقد أدانت المناقشـات الذاتية للأدب، ودعت إلى الوضوح والدقة في دراسته، وتطلعت في مسعاها هذا إلى إقامة علم مستقل للأدب يستمد منطلقاته من الخصائص الداخلية للنصوص الأدبية. وهكذا انصرفت إلى دراسـة أسلوب الكاتب بوصفه نظاماً دلاليـاً خاصاً به، وإلى تدبّـر نصه بوصفه موضوعاً لغوياً محكوماً بقوانينه الداخلية الخاصة، ورأت أن الشـكل يخلق مضمونه، ووضعـت نصب أعينها هدفاً استراتيجياً هو تحديد ما يجعل النص أدباً، أو الوقوف علـى أدبيته "Literariness"، على حد تعبير رومان جاكبسـون، أبـرز ممثليها، وأوفرهم نشاطاً، وأغزرهم إنتاجاً، وأعمقهم فكراً، وأوسعهم تأثيراً.

وضحت الشـكلية الروسـية معتقداتها في

أوسيب بريك

رومان جاكبسون

الأدب ودراسته ونقده من خلال مؤلفاتها الجمعية من جانب، وأعمال أعضائها الفردية. فقد نشـرت ثلاث مجموعات من المقالات حمل كل منها عنوان مسعاها وهو دراسة اللغة الشعرية. وهكذا ظهرت مجموعتان تحملان العنوان نفسـه وهو: دراسات في نظرية اللغة الشعرية في عامي 1916 و1917، في حين تأخـرت المجموعة الثالثـة التي حملت عنوان: الشعرية: دراسات في نظرية اللغة الشعرية حتى عام 1919، أما المؤلفـات الفردية فربما كان من أبرزها دراسـة رومان جاكبسون الشعر الروسي الحديث التي ظهرت عام 1921، ودراسة آيخنباوم لحن الشعر الغنائي الروسي الصادرة عام 1922م، ودراسـة يوري تينيانوف مشكلة لغة الشعر التي تعود لعـام 1924، ومؤلَّف شكلوفسـكي نظرية النثـر الصادر عـام 1225، وغيرها من الدراسـات التي نشـرت منجَّمة في مختلـف دوريات الاتحاد السـوفييتي في تلك الفترة، والتي جُمِعت لاحقاً وتُرجِمت لتصـدر في مختـارات جمعية باللغات الإنكليزية الفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات.

نظر الشكليون الروس عامة إلى الأدب على أنه فـن لفظي Verbal Art ، أي علـى أنه فن جميل أداته اللغة، فهو حقل متميز يجسد لوناً من ألوان المسعى الإنساني في ميدان الفن اللفظي، وليس انعكاساً للمجتمع الذي يُنتَج فيه، ومن ثَمَّ فإنه ليس ميداناً للصراعات الفكرية. ولذا كان من الطبيعي أن ينصرفوا في جلّ ما قاموا به من أبحاث ودراسـات إلى الشعر، الذي عنوا به أكثر من عنايتهم بالشاعر، فقد كان همهم تدبّر الأعمال الأدبية ذاتها وليس البحث عن جذورها أو تقصي تأثيراتها. فـ "موضوع البحث الأدبي – كما ألح على ذلك جاكبسون- ليس الأدب في كليته، وإنما الأدبية التي تجعل من عمل ما أدباً". وهكذا ركزوا على الوسائل والأدوات التي تصنع هذه الأدبية، وبعبارة أخرى على "القسمات المميزة لـلأدب"، أو علـى الأدوات الفنية المميزة للكتابة التخييلية Fictional writings، لأن الأدب الخيالي في نظرهم ليس غير نمط فريد من الإنشاء اللغوي يتميز بتركيزه على الأداة medium، التي هي اللغـة الطبيعيـة، وعلى مختلف الوسـائل والتقانات المسـتخدمة في جعلها لغة شـعرية، مقابـل لغة الحياة اليومية التي لا تدخل في دائرة الفن اللفظـي. وربمـا كان من أبرز مـا ألحوا عليه بوصفه وسيلة مثلى لتحقيق هذه الغاية ما سماه شكلوفسـكي "التغريب" أو "جعل الشـيء يبدو غريباً" Enstrangement، او "نزع حجاب الألفة" عن الأشـياء التي يتم تداولها فـي النص الأدبي أو Defamiliariztion (وهـي ترجمـة إنكليزيـة شائعة، يتحفظ عليها بعض دارسي شكلوفسكي من أمثال بنجامين شـير Benjamin Sher). ففي حين تسـعى اللغـة العادية في مختلـف ألوان الإنشاء اللغوي المتصل بالحياة اليومية إلى تقريب الأشـياء من الأفهام وجعلها مألوفة وعادية قابلة للاسـتيعاب، تجهد اللغة الشـعرية، ولغة الأدب عامة، إلى جعل المألوف يبدو غريباً، وذلك بتقديمه في ضوء جديد، أو بوضعه في سـياق غير متوقع، يلفت إليه اهتمام القارئ ويتحدّاه؛ إذ يواجهه بما لم يألفه، ومن ثَمَّ يجعله يفكر بعمق بما بين يديه من نصوص حتىّ يستطيع النفاذ إلى سرّ جمالها، ويتبين جوهر أدبيتها، أو ما يجعلها أدباً.

العيون كتاب في البلاغة

للشـاعر رئيال الجبوري نصوصه الصادرة تحت عنوان «العيون» كتاب في البلاغة مع إشـارته إلى أن هذه النصوص شـعر وهي من واحد إلى مئتين واثني عشـر جملة شـعرية أو ما يشـبه ذلك دون أن يبتعـد الكاتب عن الحكمة المقتضبـة، النوم قبر مفتوح - الحب كعبة العاشقين - النوم قفزة في الظلام - العقل سبورة دون طباشير وهكذا.

المجموعة في 76 صفحة صادرة عن دار التكوين فيها إشارة لابد من تدوينها كخاتمة: لم تكـن هذه النثرات إلا نفحات من ضواحي العقل.

فاديا الخشن السمكة الهاربة

بعد حزمة مـن الإصدارات مثـل النـار منـك تتبعنـي - المسـتأنس ببنابيعه - الحب زحـف مقدس - جمـع المؤنث العاشق.

صدر للشاعرة فاديا الخشن مجموعتها الجديدة «السـمكة الهاربـة بدايـة بحـر» عن دار التكوين في 118 صفحة.

ومن أجوائها:

أيها الصياد بالماء الحلو
متى تدون ربيعاً
في مدار الخفق
يزهر؟
متى تبلغ الرشد
فتشهق